عن «شارلي» أيضاً وأيضاً: فرنسا وإعلامها... ما بعد «سكـ

سامر سعد*

من يتابع الاعلام الفرنسي هذه الأيام فإنه ينتابه شعور احياناً بأنه أمام إعلام «وطني» يقترب بعض الشيء من وسائل الإعلام في كثير من الدول العربية، بعد أزمة كبرى او مجزرة لها أبعاد طائفية، مع اختلاف في شكل ومستوى الأداء. لم يكن لأحد ان يتصور مثلاً أن تقصد محطات التلفزة والإذاعات، في بلد يتباهى بعلمانيته كفرنسا، إبراز خلفية ضيوفها الطائفية وأن يبدي مقدمو الأخبار دهشتهم عمدا وهم يذكرون الضيف بانه مسلم ويقول: «انا شارلي»، او أنه مسلم ومتزوج فرنسية (مسيحية) او يهودي ولا يريد مغادرة فرنسا الى اسرائيل، كآلاف الفرنسيين اليهود الذين قرروا الانتقال الى اسرائيل حتى قبل دعوة نتنياهو لهم. بدا الإعلام، وكأنه يبحث عن رموز تساعده على ترويج صورة المجتمع المتعاضد. وهكذا أصبح الشاب «المسلم» الذي اخفى عددا من الرهائن في المتجر اليهودي الذي اقتحمه امادي كوليبالي . وعن حق . بطلاً ورمزاً للتأكيد أن المسلمين لا علاقة لهم بالارهابيين، وكرمته الدولة بمنحه الجنسية الفرنسية.

في المرحلة الأولى بدت وسائل الإعلام الفرنسية ولاسيما القنوات الاخبارية في حالة ذهول غير مسبوقة، أمام هول ما حدث في قلب العاصمة. وقعت هفوات كادت تهدد حياة أشخاص، خلال مرحلة الملاحقة واحتجاز الرهائن. فاحدى القنوات اوردت خبراً عن وجود رهائن في غرفة التبريد في المتجر اليهودي. معلومة لو وصلت لمحتجز الرهائن كوليبالي لكادت ترشده إلى مكان اختباء الرهائن. وأيضا القناة الفرنسية الثانية، وخلال تغطيتها الحية تلقت اتصالاً من شقيقة الرهينة في ورشة الطباعة حيث تحصن الاخوان كواشي، ولمحت إلى احتمال ان يكون مختبئاً. وتبين فيما بعد ان الشاب اختبأ لمدة ثماني ساعات تحت حوض المغسلة بعيدا عن أعين الأخوين. تساؤلات عدة طرحت عن كيفية التوفيق بين سرعة الاعلام والمسؤولية، وعن كيفية تغطية حدث من هذا النوع. فهل كان يجب مثلا الإشارة إلى قرب عملية الاقتحام، أو عرض صور استعدادات قوى التدخل السريع كما فعلت احدى القنوات. تساؤلات استدعت اجتماعا لـ«المجلس الأعلى للإعلام المسموع والمرئي» بحضور مدراء وسائل الإعلام، جرت فيه مناقشة هذه التغطية وكيفية تلافي الأخطاء التي قد تهدد حياة أشخاص أحياناً، ويفترض أن يعرض المجلس خلاصاته في وقت لاحق.

منذ وقوع الهجوم، وخلال المطاردة التي انتهت بمقتل «الإرهابيين الثلاثة»، لم يكن في الإعلام سوى «التأثر» وتأجيج المشاعر. وهو ما انتقده الفيلسوف ميشال وينفري الذي رأى أن التأثر أمر طبيعي ومفهوم عندما يقع «هجوم- كارثة» ضد صحافيين وسط باريس بهذا الشكل، لكن المشكلة أنه لم يكن في الإعلام سوى هذا، ولم تطرح جذور المشكلة والأبعاد الجيوسياسية والسياسية ومحاولة فهم ما حدث ولماذا وصلنا إلى هنا؟». بدأت مرحلة جديدة في وسائل الإعلام بعد مقتل المهاجمين عنوانها «الوحدة الوطنية»، والحفاظ على السلم الأهلي. فمفردات الاعلام الفرنسي بدت وكأنها ترجمة لمفردات شاشات عربية عن التعايش والاحترام المتبادل و«واحد واحد واحد الشعب الفرنسي واحد، وكلنا إيد وحدة». وباتت لافتات «الصليب والهلال ونجمة داوود» في أي تجمع أو تظاهرة، تمثل لقطة مغرية للإعلام ومشهد الإمام والحاخام والقسيس يدا بيد من الصور المحببة، لا بل المطلوبة سواء في الإعلام المحسوب على القطاع العام أو الخاص. فالقضية وطنية والإعلام كله «وطني»، كما يكرر وزراء الاعلام في معظم الدول العربية. والحديث عن قوى الأمن والجيش الفرنسيين يستدعي كثيرا من الوقار، والاحترام فهما «العين الساهرة» على أمن المواطنين. خطاب التهدئة الإعلامي يتسق ويعبر عن خطاب يكرره سياسيو البلاد منذ الساعات الاولى لاعتداء شارلي ايبدو. خطاب «الوحدة الوطنية» و«المسايرة». لم يمر يوم واحد منذ الاعتداء دون ان يذكر فيه فرانسوا هولاند أو رئيس وزرائه مانويل فالس ان فرنسا تحارب الارهاب والتشدد الإسلامي لا الاسلام. واستغل هولاند فرصة عقد ندوة في «معهد العالم العربي» ليعتلي منبرها ويقول: إن «الاسلام منسجم مع الديمقراطية»، وإن «المسلمين هم أولى ضحايا التشدد الإسلامي»، وذهب رئيس وزرائه ابعد بالحديث عن «نقاش داخل الإسلام»، واجتهد وزير الخارجية فابيوس بالقول إن الجهاد ليس من الاسلام. ووجدت وسائل الإعلام الفرنسي نفسها فجأة في قلب المعركة «الجهادية»، و«الفقهية» أيضاً. فما كانت تعيره شيئا قليلا من الاهتمام سابقاً، بات يمثل عناوينها الأساسية. خلال ثلاث سنوات على الأقل، كانت تتناول مسألة المقاتلين الفرنسيين والأوروبيين في الخارج كتهديد محتمل، وبعيد عن الأراضي الفرنسية طالما أن الضحايا من غير الفرنسيين أو على الأقل ليسوا على الأرض الفرنسية. فحتى عندما شاهد الفرنسيون صور أبناء «الجمهورية»، ومن أصول فرنسية وليسو من أصول مهاجرة، يقطعون رؤوس جنود سوريين ومواطن أميركي أو يسحلون ضحاياهم في الشمال السوري لم يعط الحدث سوى مساحة محدودة في وسائل الإعلام ولم يحول إلى قضية «وطنية». وعندما فجر أحد الفرنسيين، ويدعى نيكولا نفسه قرب حمص عام 2013، لم يطرح السؤال حتى عما يفعله أبناؤنا في الخارج من قتل للمدنيين. لم يطرح سوى خطر عودتهم الى فرنسا مدربين لا خروجهم للجهاد في الخارج. وبدأت تطرح الاجراءات القانونية الواجب اتخاذها لمنع عودتهم، كمحاكمتهم عند دخولهم الاراضي الفرنسية او سحب الجنسية الفرنسية منهم. السياسة كانت هكذا، والإعلام لم يتقدم عن السياسة. أما اليوم فتنشر صحيفة «لوجورنال دو ديمانش» استطلاعا يظهر ان 68% من الفرنسيين يؤيدون منع مغادرة المقاتلين ومنع عودة من غادروا منهم». و81% يؤيدون سحب الجنسية منهم. ما بدا أنه إجماع داخلي وتعاطف دولي مع مصيبة باريس لم يدم. وفي أول اختبار بدأت الأسئلة الصعبة تفرض نفسها على الحكومة وعلى الإعلام. التحدي الأبرز جاء من بعض «مدارس الجمهورية» التي رفض تلامذتها الوقوف دقيقة صمت حداد على أرواح الضحايا. وتصاعدت المشكلة داخل بعض المدارس مع نشر «شارلي ايبدو» رسوما جديدة للنبي. انذرت تصرفات بعض التلاميذ بمشكلة حقيقية في مدارس الجمهورية التي جعلها جول فيري عام 1882 «علمانية والزامية». بات على وزارة التعليم طرح اصلاحات جديدة لتلافي النواقص في التعليم من خلال اجراءات ابرزها تعميم كتيب على التلاميذ يشرح ما هي العلمانية. أما التعاطف الدولي الذي تجلى في مسيرة باريس، فسرعان ما تهشم، وتصاعدت حملة «انا لست شارلي». وتصاعدت ايضا الاعمال المعادية للمسلمين لتصل إلى اكثر من 116 عملا خلال عشرة ايام، التي تعاطى معها الاعلام بالحد الأدنى. ومرة جديدة وجد الإعلام الفرنسي نفسه أمام معركة من نوع جديد. عليه ان يتجنب صب الزيت على نار الاحتجاجات المتصاعدة ضد شارلي وضد فرنسا، ولاسيما في دول محسوبة على فرنسا كالنيجر. لجأت بعض وسائل الإعلام إلى استضافة أئمة ومختصين في الفكر الإسلامي ليشرحوا «الدين الصحيح». هل بالفعل يحظر تصوير النبي (ص)، أم أنها تفسيرات لا إجماع عليها؟ وما حدود حرية التعبير. أسئلة أساسية باتت مطروحة اليوم. وستطرح أكثر بعد حديث رئيس الوزراء عن «ابارتهايد مناطقي واتني» في فرنسا.

الاعلام تجنب الأسئلة المحرجة لفترة طويلة

خلال الفترة السابقة لهذا الهجوم بقيت وسائل الإعلام خجولة بطرح الأسئلة الأساسية والمزعجة، بما فيها تلك المتعلقة

«شارلي» بأي ثمن؟

فريدريك لوردون *

حين تلتقي سلطة تجلّي الموت، هذا الطقس الاجتماعي الذي يفترض تمجيد الموتى، مع قوّة عواطف جياشة تجتاح مجتمعاً بأسره، فإن أكثر ما نخشاه هو أن يتخبّط وضوح الأفكار في لحظة ضياع. بالطبع، لا بدّ أن يأخذ المرء طرفاً، فلكلّ حدث ظرفه ووقته الاجتماعيان: هناك وقت للتأمل ووقت لقول كلّ شيء مجدداً.

ولكنّ ما ندين به لذكرى الموتى لا يعني سلبنا حقنا في الكلام حتّى لو أنّ الصدمة بلغت ذروتها. ولا يعني على الأخص منعنا من محاولة تقديم توضيحات في خضم هذا الارتباك والتعقيدات الفكرية والسياسية التي لا يخلو منها أي حدث متطرّف بحد ذاته. وتبرز أيضاً هذه التوضيحات بشكل خاص في ظل إشراف مستنير لوسائل إعلام لا تفوّت فرصةً لتستعيد عافيتها على ظهر «حرية التعبير» وللسياسات التي احترفت فنّ التعويض عن أي خسارة.

في الواقع، يتجلّى جوهر هذا الالتباس في شعار واحد ألا وهو «أنا شارلي»، الذي قد يبدو واضح المعاني من النظرة الأولى، ولكن يخفي في طيّاته مشاكل متعددةً.

«أنا شارلي» جملة بسيطة، ولكن ما الذي تعنيه حقاً؟ في علم البيان، المجاز المرسل هو الكلمة التي تعني شيئاً آخر تكون على صلة به، مثل استخدام الجزء للتعبير عن الكلّ. وفي شعار «أنا شارلي»، تكمن المشكلة أن كلمة «شارلي» تعني أشياء عدّة مختلفة، ولكن متصلة في ما بينها. فهذه الأشياء المختلفة تتطلّب منّا واجبات مختلفة، وهنا من شأن المجاز المرسل أن يسهم في المزج بين هذه المعاني، فتنعدم القدرة على التمييز في ما بينها.

«شارلي» هم في الدرجة الأولى أشخاص عاديون، لهم كيانهم الخاص، وسرعان ما استخدمت هذه الكلمة لتشمل أيضاً شرطيين، ورجل صيانة، وزائراً تعيس الحظّ في ذلك اليوم، ثمّ خمسة أشخاص آخرين، بينهم أربعة يهود، قتلوا بعد يومين من الهجوم. ولا يمكننا ألا نشعر بالذهول والرعب إثر خبر عمليات القتل هذه إلا لو كنا مجرّدين من إنسانيتنا.

ولكن المشاعر ما كانت لتكون غامرةً هكذا لولا أن الجميع أدركوا أن المستهدفين هم أكثر من أفراد، وهنا المعنى الثاني المحتمل لـ«شارلي»، فهو مجاز مرسل يعبّر عن مبادئ حرية التعبير، وحرية قول ما نشاء من دون أن نخاف على أمننا الخاص، وهذا في صلب نمط حياتنا.

لا بدّ أن ندعم «شارلي» إجلالاً لأرواح القتلى، شريطة أن نتذكر أيضاً أشخاصاً آخرين قد قتلوا، منهم زياد (بنا) وبونا (تراوري)، وريمي فريس بعدهما، ونلفت إلى أن التعاطف الشعبي يتوزّع أحياناً بطريقة غريبة، وبالأحرى بطريقة غير متساوية بشكل مستغرب. يمكننا أيضاً أن نشعر بـ«شارلي» باسم الفكرة العامة، إن لم يكن من خلال طريقة محددة للعيش في المجتمع، أو تنظيم الكلام على الأقل، وهذا يعني باسم إرادة عدم الاستسلام أمام تعديات ستتولّى نفيها بشكل قاطع، فيبرهن عن حيويته المجتمع القادر على التعويل على أكبر قاسم مشترك يجمع أبناءه.

غير أن الأمور تصبح أكثر تعقيداً حين لا يعود «شارلي» يمثّل أفراداً ومبادئ عامة، بل شخصيات عامة اجتمعت في صحيفة، وبالتأكيد كان لهذه القراءة الشخصية الحظّ بأن تفرض نفسها بقوّة الدليل. فلا تعارض بين أن نحزن لهذه المأساة الإنسانية وألا نغيّر رأينا تجاه هذه الصحيفة، فمن جهتي رأيت في الأمر خلافاً سياسياً عنيفاً. فلو أنّ الأمر وفقاً للمنطق يقضي بالقول إنّ تعبير «أنا شارلي» يشير إلى مجلة «شارلي»، فلكان هذا التماهي مستحيلا بالنسبة إليّ. أنا لست شارلي ولن أكون كذلك يوماً.

ولن أكون كذلك أيضاً بعدما أصبحت هذه الصيغة بمثابة إخطار، فتدحرجنا خلال

> **أنا لست شارلي ولن أكون كذلك يوماً بعدما أصبحت هذه الصيغة بمثابة إخطار**

ساعات نحو نظام قيادي لا يفصل بين العاطفة والسياسة. إذ منذ اللحظات الأولى، ذكّرنا شعار «أنا شارلي» بشعار «كلّنا أميركيون» الذي رفعته صحيفة «لو موند» في 12 أيلول 2001. ولم يستغرق الأمر أكثر من نصف نهار لتأكيد هذه النظرية مع رفع صحيفة «ليبيراسيون» الشعار بصيغة الجمع «كلّنا شارلي»، فأهلاً بكم في عالم الوحدة المفروضة الذي يحمل معه البؤس لمن يعانده.

هيا نحتفل بحرية التعبير تحت وطأة قمع أي انشقاق مع المزج خلسةً بين العواطف الناجمة عن المأساة والانتماء السياسي الضمني للخطّ التحريري. وقد نصل إلى محاكمة الصحافة الإنكليزية واتهامها بالنفاق وعدم إظهار ما يكفي من التضامن (الطباعة) لرفضها إعادة نشر الرسوم الكاريكاتورية، فكان علينا إذاً اجتياز البحر لإيجاد أشخاص لا تزال أفكارهم واضحة، فنسمع منهم حجةً أساسيةً وهي أن الدفاع عن حرية التعبير لا يعني بالضرورة تأييد التعابير التي يطلقها أولئك الذين ندافع عن حريتهم.

وكان هذا الإجماع المفروض محكم التّصميم لدرجة انكبّ عليه المستفيدون على اختلاف أنواعهم. وبدون أي شكّ إذا ما استندنا إلى الانعكاس الانتهازي، لبدت وسائل الإعلام كلّها شبيهة تماماً بالسلطات السياسيّة فهما تتشاركان في مهنة تشويه السّمعة، ولن تفوّتا فرصة مماثلة حتى تتسترا خلف «حرية الصحافة»، إذ إنّها ملاذ أعمالهما الشائنة. ونذكر صحيفة «ليبيراسيون» التي استضافت طاقم مجلة «شارلي إبدو» في مقرّها بكثير من التفاخر الإعلامي. هذه السفينة المتهاوية التي بيعت إلى كلّ القوى المؤقتة تعتبر نفسها الملاذ الأخير لحرية التعبير! على الأرجح لهذه الكلمة معانٍ أخرى. فكم من الجهات المشابهة لتلك التي تقف خلف ليبيراسيون تشارك في المزايدة على الشارلية؟

كتب سبينوزا في واحدة من رسائله «إن عاد إلى هذا العصر الرجل الذي قيل إنه يضحكك على كلّ شيء، فسيموت من الضحك بالتأكيد، إذ بالطبع يوجد ما يثير الضحك حين نرى مكوّنات الخضوع للنظام الاجتماعي وهي تمدح بكثير من الجدية رفض التقاليد والانقلاب الجذري على الواقع. نضحك طويلاً.. ولكن ليس طويلاً جداً، لأنه يجب التفكير أيضاً في كيفية الخروج من هذه المظاهر المضللة في يوم ما».

سيتم ذلك بدون مساعدة السلطة السياسية التي ليس لها أي مصلحة بفتح عيون الرأي العام والتي لطالما اعتمدت على مفهوم الوحدة الوطنية كواحد من أهم مواردها الموثوق بها. ولكم تكررت على مسامعنا صيغة الوحدة الوطنية بنبرة حازمة، وأخيراً الوحدة الدولية. وما كان يلزم إلا حملة اندفاعية للتكفير عن الذنوب يطلقها فرنسوا هولاند لتحسين صورته واستعادة وهجه في باريس، «عاصمة العالم»، حتى يحتّ شخصيات رفيعة المستوى معروفة بموقفها المؤيد لحرية الصحافة وحوار الحضارات، ربما أمثال ثمّ أوربان، بوروشنكو، نتنياهو وليبرمان حتى يقفوا إلى جنبه.

ولحسن الحظ، يمكن الجزم بأن التأييد

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب: بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500 / 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات: الوكيل الحصري شركة بروموفيكس 01/788200
■ التوزيع: شركة الأوائل 15ـ01/ 666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني: www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل: /AlakhbarNews @AlakhbarNews /alakhbarnews-paper